أوضاع دمشق السياسية تحت سلطان العثمانيين خلال الفترة 1650-1750

The Political Conditions of Damascus under the Sultanate of Ottomans from 1650-1750

د. إبراهيم بحيات: باحث في التاريخ الحديث، جامعة ابن طفيل المغرب.

Dr. Ibrahim Bahyat: A researcher in modern history, Ibn Tofail University, Morocco.

Email: bouhayatibrahim@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v5i2.1362

تاريخ الاستلام: 2024-12-03 تاريخ القبول: 2025-02-01 تاريخ النشر 2025-02-01

الملخص:

تلقي هذه المساهمة العلمية نظرة عامة على الأوضاع السياسية المرتبطة بمركزية العثمانيين ودمشق الشام بين سنتي 1650 و1750، حيث حاولنا تسليط الضوء على بعض المعارك العسكرية والضغوط السياسية التي كانت سببا في أفول المركز العثماني وقيام بعض الثورات والتمردات في الهامش العربي الإسلامي عموما ودمشق بشكل خاص. وقد ألقينا نظرة على كيفية تولي مقاليد الحكم بالدولة المركزية وبدمشق الشام وما نتج عن ذلك من مشاكل وصراعات. وأظهرت الدراسة الدور المهم الذي لعبته كل من التربية والتعليم في تطور الثقافة والفكر العربي على العهد المدروس، كما لا تفوتنا الفرصة دون الإشادة بالأدوار الكبرى التي لعبتها اللغة العربية بالعروبة عموما في تطوير الهوية والثقافة، والحفاظ عليها من موجات التحديث والتغيير وتثبيتها، فعلى سبيل المثال كانت دور القرآن بدمشق وغيرها من المناطق المجاورة كنماذج للتنمية والتثقيف، حيث كان تلقين العلوم وتحفيظ القرآن في هذه الكتاتيب مجانا، وهي ظاهرة كانت منتشرة في ربوع كثيرة من بلاد الإسلام والمسلمين.

الكلمات المفتاحية: السياسة، دمشق، المغرب، المركز، السلطة.

Abstract:

This scientific contribution provides an overview of the political conditions related to the centrality of the Ottomans and Damascus from 1650 to 1750. We have sought to shed light on various military battles and political pressures that contributed to the decline of the Ottoman center and the emergence of certain revolutions and rebellions in the Arab-Islamic periphery in general, and in Damascus in particular. Additionally, we examined how governance was assumed in the central state and in Damascus, along with the resulting problems and conflicts. The study showed the important role played by both education and teaching in the development of Arab culture and thought during the studied era. We cannot miss the opportunity without praising the major roles played by the Arabic language in Arabism in general in developing identity and culture, preserving it from waves of modernization and change, and establishing it. For example, the Quranic schools in Damascus and other neighboring areas were models for development and education, as teaching sciences and memorizing the Quran in these schools was free, a phenomenon that was widespread in many parts of the lands of Islam and Muslims.

Keywords: Politics, Damascus, Morocco, center, authority.

المقدمة:

سبق واشتغلنا في مقال سابق على موضوع "الأوضاع الاجتماعية والثقافية لدمشق الشام بين سنتي 1650 و1750م[1]، إذ تبين لنا أن هذا القطر لم ينل حقه من الدراسة التاريخية المتأنية خصوصا في نظامه السياسي، لذلك حددنا الموضوع في "أوضاع دمشق السياسية تحت سلطان العثمانيين خلال الفترة 1650 – 1750". وسيدور نقاشنا من خلال هذه الورقة على إشكالية التفاعل والتأثير المتبادل بين الأوضاع السياسية والعسكرية وتأثيراتهما على مركزية العثمانيين من جهة أولى وعلى دمشق الشام من جهة ثانية. فالمرحلة التاريخية التي نعمل على سبر أغوارها بالتحليل شهدت العديد من الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي امتدت تأثيراتها على المجتمع الدولي والشامي إلى المرحلة المعاصرة، فقد تجلت في الأفق تحولات كبرى غيّرت الخارطة السياسة للعالم، خصوصا أنها أتت موالية لما بعد النهضة الأوروبية[2]، واتسمت بالترنح السياسي الواضح للإمبراطورية العثمانية، كما طغت تأثيرات تلك الأوضاع بشكل مباشر على الأقاليم التابعة لها عموما وعلى دمشق الشام خصوصًا.

من هنا ارتأينا أن تحليل ومناقشة القضايا التي يثيرها موضوع هذه الورقة يقتضي الاعتماد على المنهج التاريخي، ومن خلاله تبرز مشروعية إثارة مجموعة التساؤلات الإشكالية من قبيل:

[1] – بحيات، إبراهيم (2021): "الأوضاع الاجتماعية والفكرية لدمشق بين سنتي 1650 و1750"، مجلة قرطاس للدراسات الفكرية والحضارية، المجلد 8، العدد 2.

[2] – النهضة الأوروبية: يشير عصر النهضة "Renaissance" إلى تغيير عميق، وتحول في الثقافة والسياسة والفن...، كانت منطلقاتها من جنوب القارة العجوز خصوصا بإيطاليا، تذكر العديد من الدراسات أنها لم تبدأ بكل أوروبا في وقت واحد، واعتبرت هذه البداية بمثابة إعداد للانقلاب الذي عم أوروبا فيما بعد القرن الثالث عشر إلى حدود السادس عشر، حيث طرأت تحولات عميقة مست الأسس التي كان يقوم عليها مجتمع العصور الوسطى، وحطمت الحواجز بين الطبقات، وهزت بذلك ركائز مجتمعات ما قبل النهضة، وكان لها أثر بعيد المدى على مختلف مناحي الحياة. للاستزادة حول موضوع النهضة انظر: شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق (2000)، تاريخ أوروبا، ط1، القاهرة: الناشر المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، ص. 8– 28؛ جيري، بروتون :(2014) عصر النهضة، ترجمة: إبراهيم البيلي محروس، ط1، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص15– 14؛ رمضان، عبد العظيم :(1997) تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث من ظهور البرجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص49– 50؛ عمر، عبد العزيز عمر (2000): تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (1815– 1919)، ط1، دار المعرفة الجامعية، ص7؛ عبيد، إسحاق، عصر النهضة الأوروبية، ط1، القاهرة: منشورات دار الفكر العربي، ص7.

Gebhart émile (1879): Les origines de la Renaissance En Italie, librairie chette, paris, pp. 12 – 13. Erwin Panofsky, La Renaissance et ses avants courriers dans l'art d'Occident, édition, Flammarion,)1970(, p. 229.

كيف كان ميزان القوى بين العثمانيين والأقاليم التابعة لهم خلال الفترة المعنية بالدرس والتحليل؟ وبماذا تميزت الوضعية السياسية والعسكرية لمركزية الحكم العثماني؟ هل شهدت الدولة المركزية انقسامات داخلية؟ وماذا عن الإيالات التابعة لها؟ وما هي السمة التي ميزت العلاقات العثمانية مع بلاد المغرب؟ وهل كان العثمانيون مجحفون في حق الأقاليم التابعة نموذج دمشق؟ بماذا تميز نظام الحكم وانتقال السلطة السياسية بدمشق؟

أولا: المركز العثماني والأقاليم: الاختلال والتوازن

مثلت الأحوال السياسية خلال الحقبة المدروسة (1650- 1750م) محاولات عديدة من قبل السلطة العثمانية في سبيل إرساء مرتكزاتها بأوروبا، وردّ الثوار الخارجين عنها بالأقطار العربية الإسلامية، وتأسيس جيش نظامي جديد مع بعض المحاولات التحديثية. ونجد من خلال ما جاء عند الباحث لابيدس أن القرنين 17- 18 الميلاديين عرفا تحولات بالغة مسّت عمق الدولة العثمانية ونظامها السياسي، مما جعل ميزان القوى بين المركز والأطراف يميل لصالح الأقاليم التي كانت تحت وطأة الحكم العثماني، وهو ما طغى على السطح تزامنا مع انتهاء التوسع، بيد أن المركز فقد الكثير من قدراته العسكرية والإدارية جراء الصراعات المضمرة منذ زمن سحيق بين النخب المركزية والأقاليم والأقطار الخاضعة والتابعة له[1]، وفي هذا السياق ناقش الباحث الشناوي العلاقة القائمة بين العثمانيين والأقاليم العربية التابعة لهم، فكتب: "إنها كانت تنظر إليها كدرع واق لها، ووسيلة ستحميها لا محال من شرور الغزو الأوروبي، أو على الأقل ستساهم في مواجهته، وفي مقابل ذلك فهي كفيلة بجعلهم أحرارا، مع محافظتها على عاداتهم وتقاليدهم المحلية، ومزاولة شعائرهم الدينية"[2]، خصوصا وأنها كانت المتحكم الأول والأخير في أحوالهم، بعدما اتسعت وتقوّت على أكتافهم منذ الأزمنة الماضية على عهد السلاطين الأقوياء من عثمان الأول إلى سليمان القانوني.

وقد بسطت الباحثة شيلشر حديثها عن كون الإمبراطورية العثمانية بلغت ذروة توسعها في القرنين 17- 18 الميلاديين، وكانت لها سلطة كبيرة على جل الولايات الخاضعة لسيطرتها، والتي كانت قائمة أساسا على ميكانيزمات إدارية وقضائية محلية، أما الميكانيزمات العسكرية فكانت شبه إقطاعية، نتيجة لذلك طغت على السطح النزاعات المحلية المناهضة للحكم العثماني لا سيما عندما كانت السلطة المركزية تعجز في بعض الأحيان على إقناع بعض الولايات أو العصب المنافسة لها

[1]- لابيدس، أيرام :(2011) تاريخ المجتمعات الإسلامية، ج1، ترجمة :فاضل جتكر، ط2، بيروت :دار الكتاب العربي، ص 472.

[2]- الشناوي، عبد العزيز محمد (1980) :الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج1، ط1، القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة، ص 2.

بشرعية حكمها[1]. ولا يخرج مجتمع دمشق الشام[2] عن غيره من الأقاليم التي خضعت لمركزية العثمانيين، وإن كان لكل قطر أو إقليم خصوصيته التي تميزه عن غيره.

[1]– شيلشر، ليندا (1998): دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: عمرو الملاح ودنيا الملاح، ط1، دمشق: دار الجمهورية ص 18– 40.

[2] – الشام: تذهب المصادر التاريخية والمعاجم الجغرافية إلى أن الشام بلدان كثيرة وكور عظيمة، تنقسم إلى خمسة أقسام: الأول فلسطين وتشمل غزة والرملة، والثاني المدينة العظمى طبرية والغور واليرموك، والثالث الغوطة ومدينتها العظمى دمشق، والرابع أرض حمص وأول طول الشام من ملطية إلى رفح، وحدّ الشام من غرب البحر المتوسط أو بحر الروم أو بحر الملح، ومن الشرق البادية من آيلة إلى الفرات وجنوبا برفح، وكانت بلاد الشام خلال الفترة المعنية بالدرس والتحليل مركزا ثقافيا وفكريا مهما، كما كانت مأوى يلجأ إليها المتصوفة أمثال البكري الخلوتي، وعلى العموم فقد استقر بها العديد من العلماء، للاستزادة انظر كرد، محمد علي (1983) :خِطَطُ الشام، الجزء الأول، ط3، دمشق: الناشر مكتبة النوري، ص 7– 9؛ البكري، أبو عبيد الله (1403) :معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع ، ج3، تح: مصطفى السقا، ط3، بيروت: عالم الكتب، ص. 773؛ أبي الفداء، عماد الدين إسماعيل (1850): تقويم البلدان، اعتنى بتصحيحه رينود بارم ديسلان ماك كوكين، ط1، بيروت، ص255؛ ابن حوقل النصيبي أبي القاسم (1992)، صورة الأرض، ط1، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ص 153؛ ابن سباهي ، زاده البروسوي محمد بن علي (2006) :أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تح: المهدي عبد الرواضية، ط1، دار الغرب الإسلامي، ص 413؛ الشريف، الإدريسي أبو عبيد الله (2002): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، مجموعة محققين، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ص 376؛ المقدسي المعروف بالبشاري (1909): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، ليدن ،ص 151؛ المسعودي علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، تح: يوسف البقاعي، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ م. س. ص. 48؛ سركيس ،يوسف (1928): معجم المطبوعات العربية والمعربة، ط1، مصر: دار صادر، بيروت: مطبعة سركيس، ص 582.

خريطة تبين تراجع الدولة العثمانية على المستوى السياسي لصالح القوى الأوروبية خلال المرحلة المدروسة[1]

ثانيا: دولة العثمانيين بين عاصفة الهزائم والانكماش

معلوم عند المهتمين بتاريخ الدولة العلية العثمانية أنه في أواخر القرن 17م تنازلت هذه الأخيرة طبقا لمعاهدات "كارلوفيتس الموقعة في سنة 1111هـ/1699م لبولندة عن بودوليا وأوكرانيا، كما تنازلت للنمسا عن المجر، وللبندقية عن المورة، واعتبرت هذه التنازلات مجرد بداية للانكماش الذي سيستمر فيما بعد، إذ انتقلت هذه الأخيرة من الهجوم والتوسع إلى الاكتفاء بالدفاع[2]، وناقش دونالد كواترت "Quataert Donald" أوضاع بني عثمان في المرحلة، حيث ذهب إلى أنهم وجدوا صعوبات كبيرة في الحفاظ على قوتهم، وبالتالي لم يعد باستطاعتهم الحفاظ على انتصاراتهم وتوسعاتهم التي تعودوا عليها فيما مضى[3]، ولا ينبغي أن ننسى على أي حال من الأحوال أن سلسلة هذه الأحداث الداخلية التي عصفت بقلب المركزية العثمانية قد تزامنت مع ظهور تحالف عسكري بين النمسا والبندقية في سنة 1128هـ/ 1716م، مما أشعل فتيل الحرب من جديد بين الأطراف وعمّق الأزمة، ولم ينته إلا بحدوث فتن[4] ونكسات، وصفها البعض بالنكبات الخطيرة، إذ أصبحت النمسا تتدخل بشكل مباشر في شؤون الدولة العلية، بذريعة حماية رجال الدين من الكاثوليك، وحماية التجار الأجانب[5]، وهي من الحيل القديمة الحديثة التي كانت تستخدم في الحروب للاستيلاء على الدول والإمارات التي تكون في مرحلة ضعف وتدهور.

---

[1]– مؤنس، حسين (1987): أطلس تاريخ الإسلام، ط1، القاهرة: منشورات الزهراء للإعلام العربي، ص350.

[2] –مصطفى، أحمد عبد الرحيم (1986) :في أصول التاريخ العثماني، ط2، بيروت :دار الشروق، ص 155؛ محمد، فريد بك (1981) :تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، ط1، بيروت: دار النفائس، ص 310؛ سيد، محمد السيد محمود (2007) :تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة، ط1، القاهرة: منشورات مكتبة الآداب، ص 377– 378.

[3] – Quataert, Donald (2005), ***The Ottoman Empire*, 1700 – 1922**, 2ed Edition, University of Cambridge, UK, P. 37.

[4]– الفتنة: يقول هشام جعيط "إنها لحظة توتر تاريخي شديد"، تشمل جل ما يقع بين الناس داخل المجتمع من تضليل واقتتال، وذهب بلقزيز إلى أنه لا يمكن فهمها في تاريخ الاجتماع الإسلامي إلا في ضوء الضربات الدموية الداخلية التي عصفت بوحدة المسلمين، وتركت آثارها جروحا غائرة في النفوس". للتوسع حول الفتن وأنواعها في التاريخ، انظر: جعيط، هشام (2000) : الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ط 4، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ص 126؛ بلقزيز عبد الإله (2008) :الدولة والمجتمع جدليات التوحيد والانقسام في الاجتماع العربي المعاصر، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص 103– 103؛ محمد.،حسان، الفتنة بين الصحابة قراءة جديدة لاستخراج الحق من بين ركام الباطل، ط1، مكتبة فياض للتجارة والتوزيع، دون تاريخ، ص 42؛ بلقزيز عبد الإله (2008) :الدولة والمجتمع جدليات التوحيد والانقسام في الاجتماع العربي المعاصر، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ص 103– 103.

[5]– في أصول التاريخ العثماني، مرجع سابق، ص.157 –156

وتذكر مجموعة من الدراسات التاريخية في هذا الصدد أنه في الوقت الذي كانت الهزائم تتوالى على الإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن 17م، كان مجموعة من العلماء يتنقلون بين الأقطار طلبا للعلم ومعلمين لأصول بعض الطرق الصوفية كالخلوتية وغيرها[1]، وهي المرحلة التي كان فيها التحالف الصليبي الأوروبي منشغلا بتشتيت قوتها، والحيلولة دون تجمعها في جبهة واحدة، فغدت جراء ذلك جيوشها موزعة بين الجهات[2]. وهو ما يوضح بشكل كبير الأحقاد الدفينة للأوروبيين على بني عثمان، وعلى سياستهم التوسعية.

ولا شك، أن اضطراب الأحوال السياسية الاجتماعية والفكرية والثقافية خلال القرنين 18/17م كان أولا وقبل كل شيء بسبب كثرة الحروب الخارجية، وثانيا بسبب الثورات الداخلية، فقد اقتنص خصوم الدولة هذه الفرصة وصاروا يغيرون عليها بين الفينة والأخرى بكيفية متزايدة غير مشهودة

[1] – الطريقة الخلوتية: تنسب هذه الطريقة الصوفية إلى محمد بن أحمد كريم الدين الخلوتي، أحد أئمة خراسان في القرن العاشر الهجري، الذي كان من أتباع الطريقة السهروردية واستقل بطريقته بعد ذلك، وتقول إحدى الروايات أنه أخذ طريقته عن الرسول بشكل مباشر، وهو في يقظة من أمره، وليس في المنام، حيث كان يتظاهر بها ويقول طريقتي محمدية، تفرعت عنها مجموعة من الفرق الصوفية سواء في المرحلة المدروسة كالرحمانية أو بعد المرحلة كالسَّمَانية والمروانية، وقد دخلت الخلوتية إلى مصر على يد مصطفى بن كمال الدين البكري أواسط القرن الثاني عشر الهجري الموافق للثامن عشر الميلادي، حيث أخذها بدوره جراء احتكاكه بالشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين الحلبي الخلوتي سنة 1115هـ، وعرفت بذلك انتشارا واسعا بين العلماء خصوصا بمصر، وكان ممن اعتنقها بعض شيوخ الجامع الأزهر، ومعلوم أيضا أن أتباعها ليسوا من المؤمنين بوحدة الوجود فقط بل هم دعاة لها، ذلك أن البكري مصطفى رائدها في بلاد مصر وغيرها، ألف كتابا في هذه العقيدة سماه "المورد العذب لذوي الورود في كشف معنى وحدة الوجود". للاستزادة انظر القصير أحمد بن عبد العزيز (2003) :عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية، ط1، الرياض: مكتبة الرشد ناشرون، ص 213؛ القادري محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج 3، تح :محمد حجي وأحمد التوفيق، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة الطالب، ص 139– 140؛ أبي الربيع سليمان (1994) :الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة، الجزء 1–2، تحقيق: تيلاني عبد العزيز، ط1، مطبوعات: أحمد بن سودة الثقافية، ص 384؛ البكري مصطفى بن كمال الدين، تسلية الأحزان وتصلية الأشجان، بيروت: كتاب ناشرون، دون تاريخ، ص 5؛ إسماعيل، العربي (1993) :معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، ط1، الدار البيضاء، منشورات: دار الآفاق الجديدة ،مطبعة النجاح الجديدة ،ص 265؛ محمود عبد الرؤوف القاسم (1987) : الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، ط1، بيروت: دار الصحابة، ص 364– 365؛ المرادي سلك الدرر، مرجع سابق، ص 191.

Chih, Rachida (1998): ***Cheminement et Situation Actuelle Dun Ordre Mystique Réformateur: La Khalwatiyya en égypte (fin XV siécle à nos jours)***, in **Studia Islamica**, LXXXVIII, Maisonneuve – Larose, Paris, PP. 181–187.

– S . Maqbul Ahmad (1978): ***Khalwatiyya***, in **Encyclopédie, de L' Islame**, VOL IV, LAIDEN, BRILL, P.1025

[2]– كارل، بروكلمان (1968) :تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبية أمين فارس ومنير البعلبكي، ط 5، بيروت: دار العلم للملايين، ص 520– 521؛ ياغي، إسماعيل أحمد (1995) :الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط1، الرياض: مكتبة العبيكان، ص 113؛ كرد، محمد علي (1983): خِطَطُ الشام، ج1– ج2، ط3، دمشق :الناشر مكتبة النوري، ص 265.

من ذي قبل، وكان من نتائج هذا التحول عزل الصدر الأعظم محمد كوبرلي الذي سار على نهج سياسة أبيه. وفي هذا الصدد لا يسعنا إلا أن نزكي الطروحات التي ذهبت إلى القول بأن الدول الأوروبية عقدت تحالفات سرية وعلنية ضد العثمانيين، مما تمخض عنه في نهاية المطاف تقسيمها فيما بينهم[1].

ومع فجر القرن 18م يبدو أن الدولة العثمانية لم تعد تفكر إلا في مواجهة الأطماع الخارجية، إذ تقلصت رقعتها التي كان امتدادها قبل سنوات يشمل آسيا الصغرى وأجزاء كبيرة من جنوب شرق أوروبا، وغربي آسيا وشمالي أفريقيا، وجنوب جزيرة العرب، ففي سنة 1153هـ/1740م أخذت الدولة العثمانية تتراجع وتتكسر جراء الخسائر العسكرية الفادحة التي تلقتها على يد الأوروبيين والروس، ولم يبق فيها وحدة ولا جامعة إلا وأخذت الثورات الداخلية آكلة منها، ولم يحدث شيء بارز في الاصلاحات، وهذا يعود بالأساس إلى كون رجالات الدولة والقائمين بأعبائها، لم يفكروا في الإصلاح حتى يتوسلوا بأهم أسبابه، وبالتالي يتسلحوا بالتطور المنشود أمام أعدائهم، فهم اعتادوا على الأخذ فقط، ولم يتعودوا على البذل والعطاء[2]، ونتيجة ذلك كانت واضحة، حيث إن معظم الهزائم والانكسارات التي تعرضت لها الإمبراطورية العثمانية كانت نتيجة مباشرة للتطور التكنولوجي الذي عرفته الدول الأوروبية، ولا سيما في مجال الصناعات البحرية[3]، وفضلا عن ذلك شكل التوسع الروسي عائقا كبيرا أمام الدولة، حيث تمكن الروس بفضل عددهم وعدتهم من الزحف جنوبا في اتجاه البحرين الأسود وقزوين، وبعد ذلك مباشرة، سيتم الاستيلاء على بحر آزوف في شبه جزيرة القرم سنة 1111هـ/ 1699م، وخلال هذه الفترة استطاعت تلك القوى المتحالفة دفع حدود الإمبراطورية العثمانية إلى التراجع نحو الخلف، كما عبر عن ذلك لابيدس وبروكلمان وغيرهما[4].

وكانت الجيوش العثمانية في أمس الحاجة إلى إصلاحات آنية على المستوى العسكري قبل غيرها من الإصلاحات الإدارية الأخرى[5]، ويضاف إلى هذه المؤثرات عوامل سياسة كبرى زادت من حدة تداخل الأمور وتعقدها، حيث كان يتم عزل السلاطين وتعويضهم بآخرين[6]، كما تم الاتفاق بين

---

[1]– الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص 115–116.

[2]– خطط الشام :ج 2، مرجع سابق، ص 267.

[3]– Quataert Donald, ***The Ottman Empire***, op. cit, P. 37.

[4] –لابيدس أيرام (2011): تاريخ المجتمعات الإسلامية، الجزء الأول، ترجمة: فاضل جتكر، ط2، بيروت: دار الكتاب العربي، ص 482، بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مرجع سابق، ص 520.

[5]– عوض، عبد العزيز محمد (1969): الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864– 1914، ط1، مصر: منشورات دار المعارف، ص 12؛ جلال، يحيى (1965): المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث، ط1، مصر: دار المعارف، ص 77.

[6]– قازان ،نزار (1992): سلاطين بني عثمان بين قتال الأخوة وفتنة الإنكشارية، ط1، بيروت: دار الفكر اللبناني، ص 63.

الوزير الثاني القائم مقام قرة مصطفى وبين العلماء على عزل السلطان محمد الرابع سنة 1099هـ/ 1688م، بعد أربعين سنة من حكمه[1].

كما توفي السلطان سليمان الثاني سنة1103هـ/ 1691م بعد حكم دام قرابة أربع سنوات، وتولى بعده السلطان الملقب بالغازي أحمد خان، وهو السلطان الواحد والعشرون من ملوك آل عثمان، والسادس عشر من الذين اتخذوا القسطنطينية[2] عاصمة لهم[3]، ولم تتجاوز مدة حكمه هو الآخر أربع سنوات، ولم يشهد عهده أحداثا سياسية وحربية كبرى، باستثناء بعض المناوشات التي ليس لها أهمية تذكر في عهده، واحتلت جزيرة ساقيز وبعض البقاع الأخرى[4]، وتوفي في ساحة القتال ضد النمسا سنة 1906هـ/ 1695[5]، فانتقل الأمر من بعده إلى السلطان الغازي مصطفى الثاني بن محمد الرابع، الذي أعلن مباشرة بعد توليه زمام الأمور أنه سيتولى قيادة الجيش بنفسه، وهذا ما جعل محيطه يبغض عليه ويفقد الثقة فيه، لكن ما لبث أن تراجع دوره كسلطان بشكل كبير، فتم عزله من طرف الإنكشارية الذين كانوا يستغلون دائما نفوذهم لعزل الولاة أو الوشاية بهم، حتى وصل الحال إلى مطالبة الأمير بعزل الوزير مصطفى كوبريلي، فاستجاب لطلبهم وأقاله سنة 1114هـ/ 1702م، وعين عوضه الوزير رامي محمد باشا، الذي وجد نفسه مجبرا على نهج خطة سابقه كوبريلي حسين باشا[6] نظرا لنجاعتها في كبح أهواء المفسدين، فتآمروا عليه هو الآخر، وهاج ضده أرباب الغايات،

---

[1] –بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، مرجع سابق، ص 521؛ تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ص 304.

[2] – القسطنطينية: كانت في مرحلة تاريخية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، بناها قسطنطين الأول سنة (324– 330م)، كان اسمها قديما بوزنطيا وأيضا رومة، وهي دار مملكة الروم، ثم ملك بها قسطنطين الأكبر، ومنذ القرن الخامس الميلادي أصبحت مركزا سياسيا ودينيا، ومدينة القسطنطينية ثلاث نواحي: ناحيتان منها في البحر الأعظم، والناحية الثالثة مما يلي البر، وفيه باب الذهب، وهي التي تلي الشمال، كما أن طولها من الباب الشرقي إلى الباب الغربي ثمانية وعشرون ميلا، وبها يوجد نهر قسطنطيانون. فتحها محمد الثاني سنة 1453م باسم الإسلام، واتخذها بعد ذلك دارا لملكه وعاصمة لعرشه. للاستزادة انظر: أبي عبيد الله البكري، المسالك والممالك، م س، ص 56؛ عبد العزيز، محمد الشناوي (1980) :الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج1، مطبعة جامعة القاهرة، ص14؛ تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سابق، ص 68؛ آصاف ،عزتلو يوسف بك (1995) :تاريخ سلاطين بني عثمان، ط1، القاهرة: منشورات مكتبة مدبولي، ص 19؛ تقويم البلدان، مرجع سابق، ص 212؛ أوضح المسالك، مرجع سابق، ص 514– 515؛ معجم ما استعجم، ج3، ص 1084؛ صبح الأعشى، ج5، مرجع سابق، ص 376– 377؛ معجم البلدان، ج4، ص 347؛ مروج الذهب، ج2، مرجع سابق، ص 153.

[3]– مؤنس، حسين (1987) :أطلس تاريخ الإسلام، ط1، القاهرة: منشورات الزهراء للإعلام العربي، ص 360؛ خطط الشام، ج2، مرجع سابق، ص 270.

[4]– تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سابق، ص 307؛ بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية، مرجع سابق، ص 522؛ سلاطين بني عثمان مرجع سابق، ص 64.

[5]– دفن في تربة جده سليمان الأول مع أخيه سليمان الثاني.

[6]– يقول أحمد ياغي: ينتمي لأشهر الأسر التي أنجبت صدورا عظام في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وأعادوا للدولة العثمانية بعض هيبتها. انظر :الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص 80؛ لوقا، إسكندر (2008) : الحركة الأدبية في دمشق 1800– 1918، طبعة خاصة، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص 17.

ومنهم الإنكشارية الذين طالبوا السلطان بخلعه فلم يستجب لندائهم، فثاروا ضده، وتحالفوا مع الثائرين والناقمين على سياسته، واستطاعوا الإطاحة بحكمه سنة1114هـ/ 1703م، رغم محاولات التصدي لهم لكن دون جدوى[1].

وإذا حاولنا أن نعقد مقارنة بسيطة بين أحداث الدولة العلية والأقطار التابعة لها في اتصالها بالأحداث الدولية وبلاد المغرب نجدها متشابهة بشكل كبير على مستوى الأوضاع السياسية[2]، ولوحظ أنه لما أخذ أحمد خان الثالث ما بين (1703– 1730م) زمام الأمور في هذه المرحلة المتدهورة، وجه اهتمامه في البداية إلى تحقيق مطامح الإنكشاريين، وبسط لهم الأمور للقضاء على معارضيهم في الداخل، وأخذ على عاتقه امتصاص غضب كل الذين كانوا يشكلون خطرا على الدولة العلية منذ زمن سحيق، ولما استوى له العرش وهدأت الأمور، أخذ يقتص من رؤوس كبارهم، فعزل الصدر الأعظم نشانجي أحمد باشا الذي نصبه جيش الإنكشارية إبان الثورة على الأسرة الحاكمة ومن والاها من الضعفاء، وعوَّضَ الصدر المخلوع بزوج أخته داماد حسن باشا، كما أقدم كذلك على تغييرات

[1] – تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ص308– 311؛ سلاطين بني عثمان، مرجع سابق، ص 64.

[2] – كانت الأحوال السياسية في هذه الفترة من تاريخ المغرب، متباينة، حيث قام المولى إسماعيل بمحاولات عديدة في سبيل إرساء مرتكزات دولته، وتوطيد سلطتها، ورد الثوار الخارجين عنها، وتأسيس جيش نظامي مغربي، وغير ذلك من الأمور السياسية والإدارية، بما في ذلك قمع ثورات أبنائه، إذ قام زيدان سنة 1700 بالثورة في تارودانت، وبذلك نهب القوافل التجارية العائدة من السوس، وثار المولى محمد بمراكش سنة 1704. أما ظروف الدولة الإسبانية فكانت بدورها متباينة، خصوصا بعد وفاة ملكها كارلوس الثاني، حيث تقهقرت قوتها بشكل كبير، وما رافق ذلك من صراعات حول الحكم انتهت بتولية "فيليب دونجو" philippe d'anjou من لدن لويس الرابع الذي كان معاديا للهولنديين وغيرهم من القوى آنذاك، وفي نفس الوقت كان حليفا للعثمانيين. ويتضح كذلك أن علاقة السلطنة العثمانية بالعلويين عرفت في الحقبة المدروسة تباينا بدورها فمثلا: نجد العثمانيين يحرضون المولى إسماعيل على استرجاع المناطق التي استولى عليها الإسبان والبرتغال، ويعدونه بتقديم دعم عسكري، ويجب الإشارة إلى أن السلطان العثماني أحمد الثالث قدم اعتذارا رسميا للمغاربة على إثر الهجوم الذي شنه أهل الجزائر عليهم، ولكن بالرغم من ذلك فغالبا ما كانت القطيعة هي السائدة على العلاقات بين الدولتين تبعا للظروف السياسية. أما بخصوص الأوضاع الدولية خلال المرحلة قيد الدرس والتحليل نجد أن أوروبا لم تسلم هي الأخرى من الحروب الأهلية، كما ذكر ذلك ابن زيدان، إذ مع بداية القرن الثامن عشر تولت حكم إنجلترا الملكة آنا ابنة جيمس الثاني، فقامت حروب ضارية بين الإنجليز والفرنسيين، بسبب مطامع لويس الرابع عشر، وأغلب هذه الحروب انتهت لصالح الإنجليز مما زادت في عزتهم فبسطوا نفوذهم على بلاد عدة من العالم، بعدما تحالفوا مع أسكتلندا، وتمكن الإنجليز سنة 1704 من السيطرة على جبل طارق بعدما كان تحت حكم الإسبان. للتوسع أكثر انظر: محمد الضعيف الرباطي (1986): تاريخ الضعيف تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق: أحمد العماري، ط1، نشر دار المأثورات، ص 78؛ الناصري، أحمد بن خالد (1997)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج7، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ط1، الدار البيضاء: دار الكتاب، ص 45– 46؛ جادور، محمد (2011): مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، الدار البيضاء: منشورات عكاظ، ص 297– 301؛ القادري، محمد بن الطيب (1983): النقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، ط1، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ص 289؛ مجموعة مؤلفين (2015): موجز تاريخ المغرب، إشراف وتقديم محمد القبلي، ط1، الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، ص 259؛ الكنسوسي، محمد بن أحمد (1994): الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، ج1، تقديم وتحقيق: أحمد بن يوسف الكنوسي، ط1، مراكش: مطبعة الوراقة الوطنية، ص 143.

عديدة شملت صدورا كبارا في الدولة لوضع حد لهجوماتهم وأهوائهم في قادم السنين، وذلك ما أفصحت عنه مجموعة من الدراسات التي اهتمت بالمرحلة[1] .

ولا غرو أن هذه العوامل تُظهر بشكل جلي، أن مركزية الدولة قد عرفت انقسامات داخلية، رغم كل محاولات الصمود التي رافقتها منذ النشأة إلى آخر يوم لها كإمبراطورية، ويُعدّ السلطان الغازي أحمد الثالث أول مسؤول عثماني، أدرك بعمق تطور الترسانة الحربية لأوروبا وعمل على اقتفاء أثرها تحسبا لكل طارئ، واهتم السلطان كذلك بإنشاء مطبعة سنة1138هـ/ 1726م لنشر المعرفة التقنية الضرورية لتسهيل عملية التصنيع وتلقين الثقافة العلمية ونشرها في المجتمع العثماني انطلاقا من المركز في اتجاه جميع الأقاليم والجيوب، مستندا إلى فتوى الشيخ عبد الله أفندي وغيره من العلماء الذين استفادوا من رعاية الدولة[2]. وهذا يبين لنا الدور الذي لعبه بعض الفقهاء وشيوخ التصوف في المرحلة، إذ كان يتم الاستناد إليهم في كثير من الأمور التي تهم التغيير في الدولة، سواء منها السياسية أو غيرها من المجالات الأخرى.

بيد أن تساهل السلطان الغازي أحمد في أخريات أيام حكمه مع زعماء الإنكشارية دفع بهم إلى العودة مجددا لتنغيص الحياة على الأسرة الحاكمة، بل وأعلنوا جهارا إسقاطه عن منصة الحكم سنة 1142هـ/ 1730م، وأحلوا مكانه ابن أخيه السلطان محمود الأول، الذي تنازل عن الحكم دون معارضة تذكر بعد حكم دام قرابة 28 سنة[3]، فتولى الحكم بعده محمود الأول الذي لم يكن له من السلطنة إلا الاسم، على عكس أسلافه[4] ، وظل النفوذ الفعلي في هذه الحقبة بيد بطرونا خليل، الذي كان له الحق في عزل من يراه غير مناسب، ولا يخدم أهواءه حسب تعبير صاحب الدولة العلية العثمانية، ووصل به الأمر إلى خنق بعض الإنكشارية الموصوفين بالبطش والقوة، فلم يكن من المستساغ قبول تصرفاته الشنيعة، فدبروا له مكيدة للتخلص منه ومن شروره[5].

ولوحظ أنه بعد هدوء أوضاع الدولة العلية العثمانية في الداخل نسبيا حتى عادت لتستأنف الحرب من جديد ضد الفرس فتغلبت عليهم، وبعدئذ تقلد محمد باشا المعروف بحنكته السياسية

[1] –سلاطين بني عثمان مرجع سابق، ص 64؛ خليل، إينالجيك (2002) :تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار، ترجمة :محمد الأرناؤوط، ط1، دار المدار الإسلامي، ص 98؛ تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ص 112، خطط الشام ،ج 2 مرجع سابق، ص 270.

[2] –في أصول التاريخ العثماني، مرجع سابق، ص 160؛ تاريخ الدولة العلية العثمانية مرجع سابق، ص319.

[3] –تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ص 318– 319؛ سلاطين بني عثمان م.س، ص65؛ خطط الشام، ج 2، مرجع سابق، ص 276.

[4] – ابن زيدان، عبد الرحمان (1999) :العلائق السياسية للدولة العلوية، تح: عبد اللطيف الشاذلي، ط1، الرباط: المطبعة الملكية، ص 57.

[5] –تاريخ الدولة العلية العثمانية، مرجع سابق، ص 320؛ خطط الشام، مرجع سابق، ص276 – 277؛ سلاطين بني عثمان، م.س، ص65.

والعسكرية منصب الصدر الأعظم، الذي لم يتوان في جمع جيوش قوية مكنته من إيقاف الزحف الروسي، وكسب المعركة ضد النمسا.

ثالثا: دمشق تحت سلطان العثمانيين

تسجل المصادر التاريخية التي اهتمت بعلاقة العثمانيين مع دمشق الشام، أن رجال الدولة العلية كانوا مجحفين في حق الأقاليم التابعة لهم، حيث أقدموا على نزع السلطة من أسياد البلاد وأشرافها في إقليمي الفلاخ والبغدان، وذلك خوفا من هيجناهم وشقّ عصا الطاعة، وأحلوا مكانهم بعض الأغنياء من أصول الروم الذين نكّلوا بالأشراف الأصليين للبلاد[1]، وقد استمر حكم السلطان محمود الأول إلى أن توفي سنة 1168هـ/ 1754م بعد أن أمضى 25 سنة على عرش الدولة، وخاض حربا شرسة ضد ثلاث دول هي إيرلاندا، وروسيا والنمسا، وخرج منها ظافرا.

وعليه، إذا كان حديثنا قد اقتصر على أهم الأحداث السياسية التي همت الإمبراطورية العثمانية، فماذا يمكننا أن نقول عن الأحداث السياسية والعسكرية والإدارية التي همت بلاد الشام خلال فترة (1650– 1750) وفي مقدمتها دمشق التي تعنينا بالدرجة الأولى باعتبارها مجالا لدراستنا؟

تجدر الإشارة بداية إلى أن التحولات السياسية التي شهدتها أوروبا بشكل عام كانت ذات أثر إيجابي على الخريطة الاستراتيجية لمنطقة دمشق مع بداية العصر الحديث، وخاصة بعد أن صارت تتحكم في شبكة التجارة العالمية، فهي تقع في مفترق مسالك الصحراء وآسيا الصغرى وأوروبا وشمال إفريقيا، وتعززت روابطها السياسية والثقافية القديمة في الإسلام، كما وضحت ذلك ليندا شيلشر، وبما أن دمشق صارت تعد أهم مركز يتجمع فيه السكان سنويا، استعدادا للتوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج، فقد اتخذها العثمانيون عاصمة لإحدى ولاياتهم مع مطلع القرن 18م، وعندئذ أضحت دمشق تحظى بأهمية سياسية من طرف الإمبراطورية[2]. لقد اعتاد الساسة العثمانيون تعيين أمراء من ذوي أصول دمشقية يعهد إليهم تنظيم الحج منذ سنة 1118هـ/ 1707م، حيث كانوا يحرصون على أن يكون حاضرا مع الحجاج إما أمير الجردة أو والي صيدا أو والي طرابلس من أجل تعزيز التعاضد والدعم بينهم، بمعنى توفير الظروف السياسية الملائمة[3].

وفي سنة 1107هـ/ 1696م أصبحت دمشق تحت إمرة عثمان باشا السلحدار الذي أخذ عنه، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين، أنه زاد من تأزيم أوضاع البلاد أكثر مما كانت عليه، فثار عليه في دمشق علماء وشيوخ الطرق الصوفية وغيرهم، وقد نعتهم بعض العلماء بفرق الملاحدة الجديدة

[1] –تاريخ الدولة العلية العثمانية، م.س، ص 320– 322– 325.

[2] – شيلشر، ليندا: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، م.س، ص17– 39.

[3] –الصباغ، عبود (1999) :الروض الزاهر في تاريخ ظاهر، تح :عبد الكريم محافظة وعصام مصطفى هزايمة، ط1، دار الكندي للنشر والتوزيع :ص 27.

والفرق الضالة عن الطريق القويم. ولذلك أرسل إليهم عثمان باشا يهددهم ويشتكيهم للدولة العلية العثمانية، فأمر السلطان بنفيهم إلى طرابلس، ولم يتمكنوا من الحصول على العفو السلطاني إلا بعد مدة من الزمن. وبعد عثمان باشا السلحدار تولى إيالة دمشق مصطفى باشا البيقلي سنة 1108هـ/ 1696م المشهور بالعدل والصلاح، الذي انفصل عن الوزارة العظمى، وكانت هذه المرة الثانية التي يتولى فيها الولاية بدمشق[1]، وفي سنة 1114هـ/ 1703م تولى البلاد محمد باشا بيرام، وعرفت فترة حكمه بالأيام الحالكة والكارثية، وكان مصيره العزل، وهو نفس مصير الذين سبقوه، فأخبر بأمره إلى القصر السلطاني، وأبلغه أنهم نهبوه وأخذوا منه ما كان بحوزته، ووجه إليهم تهمة بقتل عدد كبير من رجاله[2]، وفي غضون سنة 1118هـ/ 1706 م قتل الأمير منصور بن شهاب بأرض المزيريب، وأرسل رأسه إلى دمشق، وتولى ناصية الحكم سليمان باشا، الذي كان قد فضل عزله عن جدة، وحج بالركب الشامي، فالتقَّت حول بعض الأعراب من بلاد الطرافة، ودارت حرب سجال بينهما انتهت بانتصاره عليهم، ورغم ما حققه من انتصار ضد خصومه إلا أنه أتى من تولى فيها الحكم من بعده[3].

وفي سنة 1119هـ/1707م تولى إيالة دمشق يوسف باشا القبطان الذي عرف بالعادل، وبعد سنة تم تعيين نصوح باشا بن عثمان واليا على الشام (1708 / 1714)، وكانت له واقعة مع عرب قناق الجديدة، وفي سنة 1123هـ/ 1711م زحف نصوح برجاله على بلاد الدروز، فقام بقتل مجموعات كبيرة منهم وأخذ حريمهم بحجة تأديب البدو العصاة، وأخذ يجمع منهم الضرائب بطريقة تفوق الوصف، وجاء عند بعض المؤرخين أن نصوح باشا حج بالناس ست مرات، ونجح في كبح جماح "العربان" إبان ولايته، وكان كلما مر بقرية أو بلد وأحس أن أهلها غير راضين به وبسلوكه إلا وأنزل عليهم لجام غضبه، وعلى الرغم من أعماله الجليلة إلا أن المقربين منه وجنوده كانوا يظلمون الناس بغير حق، فصدر أمر السلطان بقتله والتخلص منه من قبل محمد شركس والي الشام الجديد، وتم تعويضه سنة 1126هـ/ 1715م بمحمد باشا الذي لم تمض عنه سنة واحدة حتى تم عزله وعوضه يوسف باشا الذي توفي سنة 1128هـ/ 1716م، وفي مستهل سنة 1129هـ/ 1717م تولى دمشق عبد الله باشا بن الكوبرلي، وبعده بسنة تولى الأمر رجب باشا، وفي سنة 1131هـ/1719م عاد أمر البلاد للمرة الثانية لعثمان باشا أبو طوق الذي فتك بمشايخ صفد، وقتل منهم عددًا كبيرًا، وفي سنة 1134هـ/ 1722م تولى دمشق علي باشا، وبعده ببضع شهور خلفه عثمان باشا أبو طوق للمرة الثانية[4].

[1] –ولاة دمشق في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 48– 49.
[2] –خطط الشام، ج 2، ص 272.
[3] –ولاة دمشق في العهد العثماني، مرجع سابق، ص 50– 51.
[4] – خطط الشام، مرجع سابق، ص274– 275، ولاة دمشق. مرجع سابق، ص53– 61.

وبحلول سنة 1135هـ/ 1723م حكم دمشق إسماعيل أفندي، وفي عهده وقعت أحداث كبرى، وكان الظلم على أشده، وصارت جل بلاد الشام مستلبة على مستوى الفكر والحكم، وحدثت فتنة عظيمة بين الإنكشارية وأوجاق القبقول[1]، وبذلك أقفلت أبواب دمشق لمدة ثلاثة أيام كما عبر عن ذلك صاحب الخطط[2]، وفي هذه الأثناء كان البكري الخلوتي بهذه الإيالة لكن المصادر لا تفصح عن رد فعله من عدمه تجاه المستضعفين والمضطهَدين، وجراء هذه الأحداث الأليمة ظهرت أسرة آل العظم الذين قال في حقهم الخوري ميخائيل بريك: "هم أولاد العرب وصلوا إلى حكم بلاد الشام منذ سنة 1132هـ/ 1720، وذلك لاعتمادهم نهج اللين والتسامح في قضائهم وحكمهم"[3]، وأصبحوا بذلك حكاما للشام حيث عهد بدمشق لإسماعيل باشا العظم، وهو أول من تولى الإيالة من أسرة آل العظم سنة 1137هـ/ 1725م، وفي سنة 1147هـ/ 1735م انتقل أمر إيالة دمشق إلى أسعد باشا العظم، وفي سنة 1153هـ/ 1741م صارت تحت إمرة علي باشا[4].

الخاتمة:

نستخلص مما سلف أن جُلّ الولاة الذين حكموا إيالة دمشق خلال الفترة المعنية بالدرس والتحليل، وقع أغلبهم في يد الدسائس والحيل الحربية والمؤامرات والهزائم العسكرية، لذلك لم تدم مدة حكم معظمهم سوى أعوام وفي بعض الأحيان شهورا معدودة إن لم نقل أياما يتيمة، كما أنهم تأثروا بالأوضاع العامة للدولة المركزية المهترئة.

ظهر بالملموس، أن الأوضاع الاجتماعية والفكرية تأثرت بالأوضاع السياسية والاقتصادية، فبعد تراجع النظام الإقطاعي العثماني في القرن السابع عشر، ترسخت القوى الإقطاعية المحلية لأن الحكومة المركزية بدت عاجزة عن كبح النفوذ السياسي المحلي الذي تمتعت به القوات شبه العسكرية، مما اضطرها للاعتماد عليهم في أعمال الأمن وتأمين قوافل الحُجّاج وحمايتهم من التمرد الداخلي وهو ما انعكس بالسلب على الوضعية العامة للمجتمع.

---

[1] –القبقول: هم جند الدولة الذين كان يرسلهم السلطان إلى الولايات، كان تكوينهم من المشاة ومن الإنكشارية "اليرلية" أو المحلية، وهم من أبناء الشام وكانوا من الفرسان، وأخلاط شتى من العساكر والمرتزقة ممن استخدمهم ولاة دمشق وقت الحاجة كالمغاربة والأكراد وغيرهم. للاستزادة حولهم انظر: الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864– 1914، مرجع سابق، ص 139. الحركة الأدبية في دمشق، مرجع سابق، ص 318.

[2] – خطط الشام، مرجع سابق، ص 275.

[3] – قال الخوري ميخائيل بريك: سمي آل العظم بأولاد العرب، وصلوا إلى الحكم بدمشق الشام سنة 1720، معتمدين في كثير من الأحيان نهج التسامح في سلطتهم. للتوسع انظر :محمد أحمد (2011): "الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني"، مجلة دمشق، المجلد 27، العدد1– 2، ص 308– 309.

[4] –ولاة دمشق، مرجع سابق، ص 62– 68؛ خطط الشام، مرجع سابق، ص 276– 277.

ونشير أيضا في ختام هذه الدراسة العلمية إلى الدور المهم الذي لعبته كل من التربية والتعليم في تطور الثقافة والفكر العربي على العهد المدروس، كما لا تفوتنا الفرصة دون الإشادة بالأدوار الكبرى التي لعبتها اللغة العربية بالعروبة عموما في تطوير الهوية والثقافة، والحفاظ عليها من موجات التحديث والتغيير وتثبيتها، فعلى سبيل المثال كانت دور القرآن بدمشق وغيرها من المناطق المجاورة كنماذج للتنمية والتثقيف، حيث كان تلقين العلوم وتحفيظ القرآن في هذه الكتاتيب مجانا، وهي ظاهرة كانت منتشرة في ربوع كثيرة من بلاد الإسلام والمسلمين.

وختام القول نشير هنا إلى أننا حاولنا النبش عن جانب صغير داخل هذا المجال الكبير والغني بالمعارف، وهي دعوة صريحة ومفتوحة للمهتمين بأن يلتفتوا إلى هذا المجال، والاشتغال على إغنائه بدراسات تاريخية وأدبية وفكرية وغيرها، ولم لا وهذا القطر من الكرة الأرضية كان نبراسا يحج إليه العلماء قبل طلاب العلم من مختلف البقاع.

قائمة المراجع والمصادر:

- ابن حوقل، أبي القاسم (1992) :صورة الأرض، ط1، بيروت :منشورات دار مكتبة الحياة.
- ابن زيدان، عبد الرحمان (1999) :العلائق السياسية للدولة العلوية، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، ط1، الرباط :المطبعة الملكية.
- ابن سباهي، زاده البروسوي محمد بن علي (2006): أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تح :المهدي عبد الرواضية، ط1، دار الغرب الإسلامي.
- أبي الفداء ،عماد الدين إسماعيل (1850) :تقويم البلدان، تصحيح: رينود بارم ديسلان ماك كوكين، ط1، بيروت.
- إسماعيل، العربي (1993) :معجم الفرق والمذاهب الإسلامية، ط1، الدار البيضاء :منشورات دار الآفاق الجديدة، مطبعة النجاح الجديدة.
- بحيات، إبراهيم (2021) :الأوضاع الاجتماعية والفكرية لدمشق بين سنتي 1650 و1750، مجلة قرطاس للدراسات الفكرية والحضارية، المجلد 8، العدد 2.
- بروكلمان، كارل (1968) :تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبية أمين فارس ومنير البعلبكي، ط5، بيروت: دار العلم للملايين.
- البكري ،أبو عبيد الله (1403) :معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، ج3، تح: مصطفى السقا، ط3، بيروت: عالم الكتب.

- بلقزيز، عبد الإله (2008) :الدولة والمجتمع جدليات التوحيد والإنقسام في الاجتماع العربي المعاصر، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
- جادور، محمد (2011): مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب، سلسلة أبحاث الدار البيضاء، منشورات عكاظ.
- جعيط، هشام (2000) :الفتنة جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ط4، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- جلال، يحيى (1965): المدخل إلى تاريخ العالم العربي الحديث، ط1، مصر: دار المعارف.
- جيري، بروتون (2014) :عصر النهضة، تر :إبراهيم البيلي محروس، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة .
- حسان، محمد، الفتنة بين الصحابة قراءة جديدة لاستخراج الحق من بين ركام الباطل، ط1، مكتبة فياض للتجارة والتوزيع.
- حوات، أبي الربيع سليمان (1994) :الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة، الجزء، 1–2، تحقيق: تيلاني عبد العزيز، ط1، الرباط :مطبوعات أحمد بن سودة الثقافية.
- خليل، إينالجيك (2002) :تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة :محمد الأرناؤوط، ط1، دار المدار الإسلامي.
- رمضان، عبد العظيم (1997) :تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث من ظهور البرجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة، القاهرة :الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- سركيس، يوسف (1928) :معجم المطبوعات العربية والمعربة، بيروت :دار صادر.
- سيد ،محمد السيد محمود (2007) :تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، وفق المصادر العثمانية المعاصرة والدراسات التركية الحديثة، القاهرة: منشورات مكتبة الآداب.
- الشريف ،الإدريسي أبو عبيد الله (2002) :نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، مجموعة محققين، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- الشناوي، عبد العزيز محمد (1995) :الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج1، ط1، القاهرة: مطبعة جامعة .
- شوقي ،الجمل وعبد الله عبد الرزاق (2000): تاريخ أوروبا، ط1، القاهرة :الناشر :المكتب المصري لتوزيع المطبوعات.

- شيلشر، ليندا (1998) :دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ترجمة: عمرو الملاح ودنيا الملاح، ط1، دمشق: دار الجمهورية.
- الصباغ ،عبود (1999) :الروض الزاهر في تاريخ ظاهر، تح: عبد الكريم محافظة وعصام مصطفى هزايمة، ط1، دار الكندي للنشر والتوزيع.
- الضعيف، الرباطي محمد (1986): تاريخ الضعيف تاريخ الدولة السعيدة، تحقيق: أحمد العماري، ط1، نشر دار المأثورات.
- عبيد، إسحاق، عصر النهضة الأوروبية، منشورات دار الفكر العربي، ط1، القاهرة.
- عمر، عبد العزيز عمر (2000) :تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (1815- 1919)، دار المعرفة الجامعية.
- عوض، عبد العزيز محمد (1969): الإدارة العثمانية في ولاية سورية 1864- 1914، ط1، مصر: منشورات دار المعارف.
- فريد، بك محمد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، ط1، بيروت: دار النفائس.
- القادري، محمد بن الطيب (1983) :التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق: هاشم العلوي القاسمي، ط1، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة.
- القادري، محمد بن الطيب (1986) :نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، ج3، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، ط1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة الطالب.
- قازان، نزار (1992) :سلاطين بني عثمان بين قتال الأخوة وفتنة الإنكشارية، ط1، بيروت: دار الفكر اللبناني.
- القصير ،أحمد بن عبد العزيز (2003) :عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية، ط1، الرياض: مكتبة الرشد ناشرون.
- كرد ،محمد علي (1983) :خِطَطُ الشام، ج1، ط3، دمشق: الناشر مكتبة النوري.
- لابيدس، أيرام (2011) :تاريخ المجتمعات الإسلامية ،ترجمة: فاضل جتكر، ج1، ط2، بيروت : دار الكتاب العربي.

- لوقا، إسكندر (2008) :الحركة الأدبية في دمشق 1800– 1918، ط1، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- مجموعة مؤلفين (2015) :موجز تاريخ المغرب، إشراف وتقديم :محمد القبلي، ط1، الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة المعارف الجديدة.
- محمد، أحمد (2011) :الحياة الثقافية في دمشق في العصر العثماني، مجلة دمشق، المجلد 27، العدد1– 2.
- محمود ،عبد الرؤوف القاسم (1987) :الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، ط1، بيروت :دار الصحابة.
- المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، تح :يوسف البقاعي، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع.
- مصطفى، أحمد عبد الرحيم (1986) :في أصول التاريخ العثماني، ط2، بيروت: دار الشروق.
- المقدسي، المعروف بالبشاري (1909) :أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، ليدن.
- مؤنس ،حسين (1987) :أطلس تاريخ الإسلام، ط1، القاهرة: منشورات الزهراء للإعلام العربي.
- الناصري، أحمد بن خالد (1997): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج7، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ط1، الدار البيضاء :دار الكتاب.
- ياغي، إسماعيل أحمد (1995) :الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط1، الرياض: مكتبة العبيكان.

- S. Maqbul, Ahmad (1978): ***Khalwatiyya***, in Encyclopédie, de L' Islame, VOL IV, LAIDEN, BRILL.
- Chih, Rachida (1998): ***Cheminement et Situation Actuelle Dun Ordre Mystique Réformateur: La Khalwatiyya en égypte (fin XV siécle à nos jours***), in Studia Islamica, LXXXVIII, Maisonneuve – Larose, Paris.
- Erwin, Panofsky (1970): ***La Renaissance et ses avants courriers dans l'art d'Occident***, édition, Flammarion.

- Gebhart, émile (1879): ***Les origines de la Renaissance En Italie***, librairie chette, paris.
- Quataert, Donald (2005): ***The Ottoman Empire***, 1700 – 1922, 2ed Edition, University of Cambridge, UK.